عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

— ١ —

أشخاص القصة

« عودة الروح » : هي ثاني الاعمال الادبية التي ظهرت للاستاذ توفيق الحكيم بعد « أهل الكهف » روايته البكر التي احدث ظهورها ضجة لا في مصر وحدها بل في العالم العربي بأسره ورفعته درجات في سماء الشهرة والمجد وتكاثرت عليه اكاليل المديح والثناء حتى ازدحمت بها صفحات الجرائد والمجلات وتبارى في تقريظها كبار الكتاب والادباء . و «عودة الروح» هي القصة المصرية الاولى Novel التي يؤرخ ظهورها عهداً جديداً وفتحاً مبيناً في تاريخ الادب المصري . وهي مصرية بمؤلفها ونسيج بردتها هذا النسيج المحكم الدقيق ، مصرية بأبطالها ، مصرية بوقائعها ، مصرية بدمها الذي يجري في شرايينها دماً مصرياً خالصاً ، مصرية بهذا الوصف الذي يعرض لاشخاص واماكن وعواطف وميول كلها مصري صادق اصيل ، مصرية بهذه الصفحات الكريمة التي مجد فيها المؤلف الفلاح المصري والثورة المصرية ، وهي اخيراً مصرية بلغتها التي أتحدث بها انا وانت وغيرنا من الاربعة عشر مليوناً من المصريين : هذه اللغة المحببة التي هي حديثنا في المنزل وفي الطريق ، في الجمع الحاشد وفي الصفوة المختارة من الاصدقاء ، حيثما كنا واينما اجتمعنا ، هذه اللغة المصرية التي نجد لها في النفس والقلب وقعاً خاصاً ورنيناً خاصاً لانجدهما في غيرها من اللغات حتى ولا في هذه اللغة العربية التي نتكلفها تكلفاً بين آونة واخرى لغرض معين او في ظرف معين ، فاذا ما انتهينا من هذا الغرض وقضينا منه وطراً ، واذا ما خرجنا من هذا الظرف الطارىء ، عدنا الى لغتنا نعب فيها ما نعب في سهولة ويسر ، وفي طبيعة غير متكلفة ولا ملولة ، ورجعنا بذلك الى احضان البيئة الاصيلة التي نحيا فيها حياتنا اليومية ، وخلعنا عنا رداء مستعاراً نبدو من بعده في لباسنا الحق ، فاذا نحن مصريون قبل كل شيء ، روحاً وجسداً ولغة

أبطال هذه القصة قلائل ، او قل ان من يعنينا من أشخاصها قليل ، وعددنا محسن وعبده وسليم ومبروك وزنوبة وهم الذين جمعهم المؤلف تحت كلمة «الشعب» ثم مصطفى وسنية . وغير هؤلاء ثمة شخصيات تمر بنا سريعاً ، وأخرى تتريث عندها برهة ثم تمضي . ولكن ما من شخصية من

كل هذه الشخصيات التي تطالعك في ثنايا القصة لا وظيفة لها ولا شأن ولا خطر ، ولكن مكانتها في سياق الحديث والقول . وان المؤلف ليتأنق في عرض ابطاله وفي تصويرهم وابرازهم تأنق الفنان العناية اناته لا تهمل صغيراً من أمر زينتها الا وتعنى به اكبر العناية . لان من هذا المجموع تتكون في عينيك الصورة التي تحبها والجمال الذي تعشقه ، ولو وجدت ثمة حذفاً او نقصاً هنا او هناك لنقص جمال الصورة بقدر هذا بل اضعافه لان الاحساس بالنقص يستوي عنده القليل والكثير ، ورب ذرة من ملح أفسدت على المرء طعامه وشرابه . والمؤلف جد حريص على ان تستوي في ناظريك الصورة في اناقة لا تشوبها شائبة ، وفي اطار حلو بارع كل البراعة ، دقيق كل الدقة ، لا تجد فيه خدشاً ، ولا تحس فيه نقصاً

يروعك من هذه القصة لاول وهلة دقة تصوير شخصياتها على اختلاف كبير بين هؤلاء الابطال في النشأة والعلم والاستعداد الشخصي ، وانك لواجد في كل منهم شخصية تخالف الاخرى وتفترق عنها في الكثير والقليل ، تجمعهم احياناً وحدة الحادثة ولكن ما أشد تباينهم تجاهها في الشعور والحس والادراك الصحيح . وما أبلغ هذا التباين في الاندماج في الحياة والانفعال بمختلف ما تأتي به من خير او شر ، من رجاء او خيبة ، من أمل او يأس ، وتكاد تحس فيهم جميعاً طيبة القلب وسذاجة الفطرة ، والتبسط في الحياة ، وتقبل ما تأتي به صروفها من ألم او أمل ، في رضى واستسلام او في غضب هو بالرضى أشبه ، ولكن كلا نسيج وحده ، وكلا بعد ذلك له خلقه البارز وطبعه المغاير وشخصيته الفذة التي ترسمها ولا تكاد تخفى على ناظريك طوال القصة ، في معالمها الكبرى وأسطرها الواضحة وحادثاتها الجلى ، بل في تفاصيلها الدقيقة وما بين هذه الاسطر والكلمات ، وما بين تضاعيف القصة من حوادث وصروف وتقلبات

وأظن ان من الخير ان نلم المامة عاجلة بهذه الشخصيات المحببة التي سرعان ما تألفها وتحبها حتى تشعر وكأنهم أحياء يتحدثون ويتحركون امام ناظريك ، لا أبطال قصة من صنع الخيال من ورائهم المؤلف يحركهم كالدمى الخشبية ويفتعل لهم المواقف والحديث والحركة

﴿ محسن ﴾ وهذا « محسن » بطلنا الناشيء ، الطالب في مستهل دراسته الثانوية ، الشاب في غرارة الصبا واول خطى العمر الغض ، ما اجدره بالحب واخلق بقلبه الفتي ان يفتح مصراعيه لاول طارق وان يصيبه السهم الاول فيدميه ويجرحه جرح الابد . وذلك هو الجرح الذي لا يفتأ على الايام يؤلم ويدمي . و « محسن » يحب ولكن على استحياء وخجل ، وفي صمت وكتمان . فاذا لمع بادرة امل راح والدنيا لا تتسع لنشوته ، واذا داخله اليأس افعم قلبه وروحه وضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت . لا يعرف مداخل الرجل الى قلب المرأة ، ولا يدري كيف يغزو الغزاة هذا الحصن المنيع ويحسنون الطرق على أبوابه حتى تنفتح لهم عن جنات ورياض زاهرة من الامل الباسم الحلو ، والسعادة العذبة التي تطغى على القلب والفؤاد وتفعمهما حياة وقوة وأملا زاخراً .

ويتعمد المؤلف ان يقدم لنا بطله في صورة الشاب الصغير السن ، القليل التجربة ، ولا ينفأ يذكرنا بهذه الصورة في مناسبات عدة وفي ظروف متباينة ليبني عليها ما يشاء فنه القصصي البارع الدقيق من ملابسات وأخيلة وتصرفات تناسب هذه الصورة وتلائمها كل الملاءمة ، وما تكاد تمضي في القصة صفحات حتى يحدد لك المؤلف عمر «محسن» تحديداً دقيقاً لا يترك مجالاً للبس والابهام فهو في الخامسة عشرة من عمره . ثم يتحدث عنه احياناً قائلاً « الفتى الصغير » او « الغلام » وهذه «سنية» عند ما تستدرج أمها لمقابلته تصفه بأنه طفل ... وتقول مخاطبة امها

— ياستي دا مش راجل ...

وهذه النظرة من سنية لمحسن لها شأنها الكبير في سياق الرواية ، بل لعلَّ سنية لو تبدَّلت نظرتها هذه لمحسن لتبدَّلت القصة كلها . وسيجيء تفصيل هذا في سياق القول

ولا يقف المؤلف عند هذا . وها هو محسن نفسه يشعر في اعماق قلبه ويحس احساساً قوياً انهُ صغير . . . لا يصلح لمنافسة الرجال في المرأة وفي محاولة الاستيلاء عليها . ويصف المؤلف هذا الاحساس في نفس «محسن» وصفاً صادقاً دقيقاً ، ويحلله تحليلاً نفسانياً بارعاً ، مرتين ، الاولى عند زيارة «عبده» لمنزل «سنية» لاصلاح سلك الكهرباء ، والثانية عند انتهاز «سليم» فرصة تلف بيانو «سنية» ودخوله منزلها مدعياً انه له خبرة بمثل هذه الشئون

ففي الاولى اوحت بعض تصرفات « سنية » لبطلنا الشاب هذا الوحي المرعب « ان النساء قبل كل شيء يهمنَّ بالرجل القوي الممتلىء طولاً وعرضاً ذي الصوت الخشن مدفوعات بدوافع خارجة عن ارادتهنَّ . لعلها الغريزة الجنسية . ولعله هو بالنسبة لعبده مازال طفلاً او غلاماً لا يوحي الى المرأة تلك العاطفة »

ويحس « محسن » من اهمال «عبده» لشأنه وعدم اعتداده به كمنافس خطر يزاحمه على «سنية» يحس الشاب «انه صغير لا يصلح حتى ان يعد قريناً ومزاحماً »

وضرب المؤلف على هذه النغمة في المرة الثانية عقب ان رجع «سليم» من بيت الجيران — اعني بيت سنية كما يعبر عنه المؤلف احياناً — وراح يتحدَّث بمحاسن الفتاة الجثمانية ، ويفصل القول في تقاطيع جسمها تفصيلاً تشمئز منه نفس «محسن» فيحسد لسليم شيئاً لا يدرك كنهه ، ثم

« أحس ذلك الاحساس المبهم مرة اخرى بصورة اوضح . احساس القصور والضعف المذل بالنسبة لسليم . وتصور سليم ذلك الرجل الذكر الذي يتغلب بسهولة على المرأة ولا قبل لها بمقاومته . . . او ان سليم رجل يعرف اشياء لا يعرفها هو . . . او ان . . . او ان . . . لا يدري الصغير محسن . . . انها مجرد احساسات غامضة لا يستطيع تعليلها ، ولا يفهم منها الاَّ انهُ بات يكره سليم ويخشاه ويشعر نحوه بشبه اذلال نفسي »

وهنا كان احساس «محسن» بقصوره في « صورة اوضح » ولم يصف في دخيلة نفسه « سليم »

بلفظة « الرجل » فقط كما وصف « عبده » بل تخيله « الرجل الذكر » وذلك لان « سليم » تحدث عن « سنية » تحدث الرجل الذي يتنبه للمرأة بدافع الغريزة الجنسية ومن حيث هي — اي المرأة — جسد يشتهى ويثير في الرجل شهوة بهيمية

فالمؤلف كما ترى لم يترك لك خياراً في الصورة التي تتخيلها عن « محسن » . فقد بدأ وقدمه لك في عبارات صريحة تشعرك بصغره ، سناً وعاطفة ، ثم جعل « سنية » تتحدث عنهُ لامها عما رأيت من انهُ طفل ، ثم ابى اخيراً الاَّ ان يدفع بهذا الاحساس في قلب « محسن » نفسه ويغوص وراءهُ ليقدمهُ لك في صورة صريحة لا لبس فيها ولا غموض . وكأن كل هذا لم يرض المؤلف في رسم الصورة التي يريدها لبطله فجعل « محسن » يأتي من الاشياء ويتصور من الاخيلة والاحلام ما لا يليق الاَّ بمثل طفل ، او شاب حدث لما تكتمل له بعد قوى الرجولة والاعتزاز بالنفس من هذه الناحية . وقصة المنديل تنهض هنا دليلاً ناطقاً بصدق هذه الصورة التي رسمها المؤلف « لمحسن » . الرجل لا يسرق المنديل ولكن يسرق المرأة نفسها ويختطفها اختطافاً . والرجل لا ينتظر هذا الخطاب الذي انتظرهُ « محسن » اياماً كاملة ، فاذا ما وصل اليه لا يبني عليه كل هذه القصور والآمال ، ولا يسترحي اسطره وكلماته الجوفاء كل هذه الاحلام العريضة التي استنزلها « محسن » من رأسه الصغير وقلبه الصغير مدفوعاً بغرارة الصبا ، هذا القلب وتلك الرأس الطليقان تباعاً يعيش في دنيا من الوهم والخيال . والرجل لا يقلب الامور رأساً على عقب فيجعل الحقيقة دون الخيال ويأبى الاَّ ان يصر على احلامه التي تخيلها ساعة او بعض ساعة بعد ان ينكشف له الحق الصراح في جلاء ووضوح . وهذا « محسن » يعرف ان الخطاب الذي وصله في القرية لم تكتبه « سنية » ولكن كتبه عرضحالجي بامضاء « زنوبه » ومع ذلك يلذ له ان يكذب فيما بينهُ وبين نفسه هذا الذي اتصل به ويخفي ممناً في خياله واوهامه ، محتفظاً بهذا الخطاب يستروح في كلماته من حين لآخر املاً عذباً ورجاء منشوداً

على ان المؤلف لا يمعن هذا الامعان كله في تحديد صورة بطله الشاب عبثاً ودون غاية معلومة او خطة مرسومة . ولا يلح هذا الالحاح كله في دقة التصوير وفي الوضوح فيه لغير شيء ، بل له من وراء هذا كله اغراض وغايات . ودعك من انهُ يقيم العذر لسنية في تجاهلها « محسن » وفي انها لم تحس حياله بما تحسه المرأة حيال الرجل ، ودعك من ان المؤلف يهيء من هذا اللون الطريف لبطله طعاماً دسماً يقدمه لقرائه في شتى مواقف القصة ، دعك من هذا ومن غيره مما اليه بسبيل من هذه الغايات التي يتطلبها الفن القصصي ويستلزمها سياق القول والحديث وقل ان المؤلف عرض بين يدينا صورة رائعة كاملة في معالمها الكبرى وتفاصيلها الدقيقة عن هذا الحب الافلاطوني ، او هذا الهوى العذري بلغة الشعراء ، هذا الغرام الذي يفيض على النفس جمالاً قدسياً هو من السماء وليس من هذه الارض ، هو من ملأ اعلى حيث تسمو الروح فوق غرائز الجسد ، وتنمحي هذه

المـادة من اللحم والدم ولا يبقى الاّ معنى من الملائكية يشع نوراً وطهراً ؛ ويصبح هذا الحب اشبه ما يكون بالعبـادة ، ويكون بين المحب وحبيبته ما بين العبد والله . ويكون حديث المحب بينهما خليقاً بمحراب او صومعة . ومن هنا احس « محسن » عند حديث « سليم » عن « سنية » ومن تقاطيع جسمها وتفصيله القول في هذا المعنى ، شعر « محسن » « بما يشعر به عابد ورع متنسك وقد رأى احداً يهين معبوده »

ولقد وفق المؤلف في ابراز المعنى الذي اراده في شخصية محسن توفيقاً عجيباً لا تخطئه النظرة العجلى بله النظرة الفاحصة المعنة التي تزن وتتأمل وتقدر

ثم لنتمهل قليلاً قبل ان نجاوز « محسن » الى غيره من ابطال القصة ولنسأل المؤلف الكريم هل كانت محض مصادفة ان وضع بين يدي بطله رواية « مجدولين » ام لحكمة دعا ذلك ولمعنى خاص لم يرد ان يشير اليه بأكثر من هذا الرمز العارض ؟ ولعلّ « مجدولين » اقرب القصص الى قلب « محسن » لان فيها هي الاخرى صورة من هذا الحب الافلاطوني الذي غمر قلب بطلنا

ومن يدريني . . . لعلّ المؤلف اراد ان يسخر من « محسن » ومن « مجدولين » ومن هذا الشباب الذي يقبل على مطالعة مثل هذه القصص اقبالاً كبيراً فتعطيه عن الحياة صوراً هي بالاحلام اشبه ، وتجعله يتعلق بأوهام وخيالات تنسيه حقائق الوجود بعد ان تخفيها عنهُ في هذه الاطر الزاهية البرّاقة الالوان من صور المثل العليا التي تفسد علينا في مستهل حياتنا كثيراً من نعيم الدنيا وتزيف امام ناظرينا الحقيقةَ وتدفعنا الى التعلق بآمال كذاب ، وان كنا نعيش بهذه الاحلام زمناً رغداً ، ولكنها حياة كحلم النائم ، والحلم جميل على أية حال ولكنه ليس اكثر من حلم ، والحقيقة مرّة ولكنها الحقيقة لا مفر منها ولا محيص عنها . ومع هذا فما اظلم حياة المرء حفت دنياه من هذه الآمال الكاذبة ومن هذا الخيال العذب والامل الحلو

ولكن ابن توفيق الحكيم وأين «عودة الروح»؟ كاد المؤلف ان يضيع في تضاعيف فلسفة الناقد

﴿ سليم ﴾ لعلنا تعمدنا الحديث عن شخصية « سليم » بعد « محسن » ليلمس القارىء مقدار بعد ما بين الشخصيتين من التفاوت والتباين في الكل والجزء ، في المجموع وفي التفصيلات . وقد يغمض عليك احياناً مشهد من مشاهد القصة ، او حادثة من حوادثها ، وقد يرمي المؤلف بين الفينة والفينة بالغموض والابهام ؛ ولكن المؤلف على ما يلوح لي لا يغفر للقارىء ان يتخيل لاحدى شخصياته صورة غير التي يريدها لها او خلقها على مثالها ، ومن هنا كانت شخصيات « عودة الروح » صريحة كل الصراحة ، جلية واضحة كل الجلاء والوضوح

هذه الشخصية يغلب فيها جانب الفكاهة جانب الجد ، فهي ليست فكاهة خالصة ، وليست جدّاً خالصاً ؛ ثم هي ترسم الى مدى بعيد طائفة من الناس تزهو على الناس وتحاول ان ترفع من قدرها فوق اقدار الناس درجات . لست احكي لك هذه الطائفة ولكنك في غنى عن هذا فانت تعرفها حق

المعرفة ، وانت بها جد عليم ، ولرب قد اختلطت ببعض افرادها ورأيت من بينهم من يذكرك « بسليم » ، وحيث تكفي الاشارة اللامحة من الخير ان نكفي أنفسنا مؤونة التصريح المؤلم الممض في غير داع ولا حاجة ملحة . وقد تكون هذه الطائفة من الناس خيراً مما تتوهمهُ عنها ولكن لا نزاع في ان لي ولك ولنا جميعاً فكرة — لست ادري كيف وجدت هذا المدى البعيد — ثابتة عن هذه الفئة ولست اتعرض لاثباتها ولا لنفيها الا لأقول ان « سليم » هو صدى هذه الفكرة في نفوسنا جميعاً

لا تنتهي من الصفحات الاولى للقصة حتى تعلم ان « سليم » ضابط من البوليس اوقف عن عمله لتهوره الذي دفعهُ اليه ميله الغريزي لمعاكسة النساء ومحاولة الاتصال بهن دون ان يتخير الطريقة المثلى المأمونة العاقبة . وله في ذلك سبيل أعوج شائك عثر فيه مرة ولكن ما يزال يرغِّبه كل مرة حضور الخاطر كأنهُ طبيعة في دمه او كأنهُ البديهة التي تلهمها ولا ندري من اين هبطت علينا فنساق بها مرغمين . وهو ينظر الى المرأة من ناحية الجسد والمتعة ويسعى وراءها ليشبع غريزة الجنس في الرجل . واذ يرى « سنية » لا يلمح الا تقاطيع هذا الجسد الممتلىء فما يذكر حتى لون « الفستان » الذي كانت ترتديه . وهذا الصنف من الرجال جريء في قحة مبتذلة

دخل « سليم » بيت « سنية » بحجة اصلاح البيانو فما زال بالفتاة يستدرجها حتى عزفت له قطعة موسيقية ، وقدم بين يديها من عبارات المديح والثناء ما أدخل الزهو على نفسها وجعلها تبادله بعض الفاظ الشكر وظفر منها بما لم يظفر به « عبده » وما لم يكن ليظفر به « محسن » لولا ظرفهُ الخاص . وهو لا يتورَّع ان يجري خلف امرأة في عرض الطريق ينثر حولها تلك الكلمات البذيئة التي لا يحسنها الا لفيف من الرجال قد خلعوا عذار الحياء والخجل ، وقد فعلها « سليم » فأعطانا من خلقه وطينته ما يغنينا عن اطالة الشرح والتفصيل

قلت لك ان هذا الصنف من الرجال جريء ، وقد كان « سليم » من بين افراد « الشعب » الوحيد الذي خطرت له فكرة ارسال خطاب الى « سنية » يتحدث اليها فيه حديث الحب والغرام وما اسرع ما نفذ فكرته ، وان يكن قد استعان في كتابته بفقرات من « مجد ولين » فذلك لان نفسه لا تمثل هذا الحب الذي يعينه على كتابة خطاب مثل هذا الخطاب

مرَّ بنا ان « سليم » يمثل صدى فكرتنا عن طائفة من الناس كأن لزيهم الخاص سحراً وطلسماً وكأن ميزاته الامر والنهي والتفرد بالسلطان والقوة . والى ناحية الرجل في « سليم » نجد هذه الناحية الاخرى بارزة واضحة . وهذا البطل لا ينسى حتى في جلسته في قهوة « المعلم شحاته » البلدي ان يصرخ ويصيح كأنهُ امام الطابور يلقي اوامره على الانفار !

ولا ينسى « سليم » اذ يذهب لمنزل « سنية » بحجة البيانو ان يخرج بذلته الرسمية ليرتديها وان يعهد « بالضابير » الى مبروك يجلوها ويلمعها . . . ولا ينسى ان يدهن شاربه بالكوزماتيك ويمشط شعره ويرسل في الهواء ضربات لاذعات من كرباجه الجلد الضباطي . . . حتى ليقول له

« حتى » هذه الكلمة التي تصف لك هذه الصورة المضحكة الفكهة ابلغ الوصف وأوجزه

— دهده ! انت لبست بدلة التشريفة ؟

﴿ سنية ﴾ بطلة قصتنا ومعبودة الشعب على حد تعبير المؤلف ، و« الهة الشرفة » عند مصطفى. وهي المحور الذي تدور حوله القصة من البداية للنهاية ، وكما تجدها في كل قلب تجدها في كل مشهد بل وفي كل جملة ، فهي تسيطر على القصة كلها ، كما تسيطر على ابطالها جميعاً . يحبها الجميع حتى « مبروك » الخادم او من هو في حكم الخادم ، وانهُ ليتأنق في لباسه اذ تؤاتيه الظروف لزيارة منزلها ، ويبتاع له نظارة يلبسها حتى يطابق الصورة التي تخيلها فيه . ولتحدثنّ لها في نفس « سليم » — وما ادراك ما « سليم » — هذا التأثير البعيد الذي يجعله يحس للمرة الاولى في حياته « عاطفة جديدة لم يكن يعرفها من قبل . عاطفة الاعجاب النبيل »

وهكذا بلغ من تأثيرها في نفس « سليم » ان احيت في قلبه ناحية كانت قد اندثرت أو كادت وبعثت منهُ شخصاً آخر وهو من عرفت خلقه وطبيعته !

فتاة في مقتبل العمر ونضارة الصبا لم تتفتح مغاليق قلبها بعد ، ساذجة بفطرتها وبحكم البيئة الطيبة التي وجدت فيها ، وهذه التربية التي درجت عليها ، فيها هذا الخفر الطبيعي الذي تلمسه في الفتيات من سنها وبيئتها ، وفيها جنوح الى هذا العبث البريء الذي هو اشبه بمداعبات الاطفال. لم تحب « محسن » وان كانت قد احست نحوه بعاطفة مثارها هذا الاختلاط اليومي ، وهذا التعلق المشترك بالموسيقى والغناء ، تحت تأثره الشديد يوم جاء يودعها قبيل سفره بالاجازة الى اهله ، « وادركت بعض ما به وارتاحت له » وكأنما لذّ لها هذا الظرف الطارئ فاعتصرت ما فيه من عاطفة طارئة واستبقت « محسن » الى جانبها قليلاً ، وطغى عليها التأثر فبكت ، ثم قبلته وأبت ان تسترد منهُ منديلها الضائع بعد ان اعترف لها انهُ كان عنده ، وإذ تفيض الكلمات على لسان الفتى بالالم والعتاب ، تمسك بيده المرتجفة وتقول له — ما لكش حق يا محسن . . . ! ردة كده ؟ اخص عليك ! لو كنت مش مهم عندي ما كنتش أعلمك بيانو . . .

ومقياس مكانة « محسن » عندها انها تعلمه البيانو ! ! وهذه العبارة في سذاجتها تدل على ان فكرة الحب كانت ابعد ما تكون عن ذهن « سنية » ولكنها احست حياله في هذا المشهد عاطفة وقتية زادها التأثر شيئاً من الحدة والقوة ، ولكنها بعد كل شيء عاطفة لم تدم اكثر من الهنيهة التي استغرقتها ، ولو ان الفتاة في مثل هذه اللحظة كانت اكثر ما تكون استعداداً لتلبية نداء الحب لو طرق سمعها هذا النداء . ولكن « محسن » ما يدريه بهذه الشؤون وهو الطفل الصغير ! !

على ان « سنية » ما كادت تلمح الرجل في « مصطفى » . . حتى علقت به وحتى اصبح لها شغلاً شاغلاً . والفصل الذي يقص علينا فيه المؤلف تدرج علاقة الاثنين وبدء تعارفهما من اروع فصول القصة ومن ادقها . وفيه هذا التحليل الدقيق لعواطف الفتاة التي يختلج في قلبها شعور متباين

غامض ، بعضه من الرضا وبعضه من الغضب ، والبعض منه مزيج من الاثنين معاً ، واول ما يلفت نظر «سنية» في «مصطفى» انه على النقيض من «سليم» لا ينظر الى شرفتها على طول سكنه بالقهوة المقابلة ! ! كأن النظر الى الشرفة فرض محتوم وواجب لا بدّ من أدائه !! ولماذا بالله ينظر اليها وليس كسليم ممن يتصيدون النساء من النوافذ او في عرض الطريق ؟ ولكن هذا الامر عند « سنية » خطير مهول فاهتمت له كل الاهتمام . ولكأني بها وقد فاظها اهمال « مصطفى » لشرفتها أرادت ان تجبره على الاهتمام بها قسراً وعنوة « فجعلت تلبس أبهر اثوابها الواناً وتذهب الى البيانو فتضرب عليه بعد ان تكون قد فتحت كل نوافذ الغرفة عسى أن يبلغ الصوت الطريق . فاذا ما انتهت وقفت بالنافذة وهي تتظاهر بمعالجة فتحها او غلقها في قوة وجلبة . بل بلغ بها الامر ان بات لا يحلو لها أن تنادي جارتها بصوت عال ، او الحديث او الضحك المرتفع الا قرب النافذة» .وكانت هذه الاعمال من الصراحة والوضوح بحيث تنبهت لها « زنوبة » فحدث بين الاثنتين ذلك العراك الذي انتهى بالقطيعة بينهما ، بل بين اهل المنزلين المتجاورين . او على الاصح بين « الشعب » ومعبوده ! !

وبلغ صوت الشجار الى مسامع « مصطفى » فرفع رأسه الى الغرفة والتقت العينان « فخفق قلب سنية بشيء من السرور الخفي» . لقد نجحت اخيراً : وانظر اليها الآن وقد اصبح قلبها موطن عواطف مختلفة متباينة تمر على صفحته في سرعة وعجلة كأنها ومضات البرق الخاطف . وهذا احساس من الابتهاج يغمرها . . . ثم يمضي فيخلف اثراً من الخجل وراءه . . . وها هي تتصنع الحدة والغضب وتتساءل : لماذا ينظر هذا الرجل الى الشرفة : وبأي حق ؟ كأنها لم تسع الى هذه الغاية جاهدة . ثم تتجه الى الشرفة « لا لشيء سوى ان تعلم اذا كان هذا الشاب الجسور ما زال ينظر اليها او الى الشرفة ؟» وتقترب من النافذة بعد ان تصلح من شعرها امام المرآة . ولكن يا لخيبة الامل . . لقد انصرف الشاب !! وأحست الفتاة بالالم والغيظ «وذلت كبرياء الانثى فيها فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها»

هذا الوصف لهذا التضارب فيما تحسه «سنية» في الموقف الذي اجلته لك من ابدع ما في القصة كلها من الصدق في التحليل والدقة في ابراز عواطف أبطال الرواية واضحة مجلوة في اجل صورها على ما في هذه العواطف العارضة من التعقيد والتباين . وأحب لك ان تقرأ هذا الفصل كاملاً في مكانه من القصة

وتلتقي النظرتان مرة اخرى وترى « سنية » بسمة عذبة تحييها على شفتي «مصطفى» فتنعم بها ليلتها ، وما تكاد تشرق عليها الشمس حتى تشرق على فتاة اخرى تفتحت امام عينيها مغاليق السعادة والهناء ، وانها لتحلم احلاماً هنية عذبة ، وتحس انها محبة محبوبة ، ويداخلها هذا الزهو الذي يداخل قلب « حواء » اذ تشعر ان ثمة من رجل يترقبها ويهيم بها فتختال عجباً وتيهاً على بنات جنسها ، وللمرة الاولى ترى نفسها أجمل مما كانت

وتقف امام المرآة طويلاً لتكتشف جمالها الساحر الذي لم تفطن اليه الا اليوم ! !

ويخال اليك وانت تقرأ هذه العبارات التي يعرض فيها المؤلف لتحليل ما تحسه بطلته وما تشعر به ، انك امام صورة رائعة من صور الحياة الحقة لا شخصية من شخصيات كتاب او نفثة من أبطال قصة . وهذه الدقة في التحليل تبلغ حد المعجزة

﴿ زنوبة ﴾ فتاة عانس جاوزت الاربعين من عمرها ولما تجد بعد الزوج الذي تنشده والذي هو امل الفتاة ومنتهى ما تصبو اليه اطماعها ، تقدم اليها بعض الخطّاب ولكنهم ما كادوا يرونها وما هي عليه من القبح والدمامة حتى فروا هاربين ، وتقدم رجل يطلب يدها مباشرة من اخيها « حنفي » واراد هذا ان يطمئنهُ على جمال اخته فقال له انها تشبهُ تماماً ، ويصف لك المؤلف هنا قبح وجه « حنفي » وصفاً تشمئز منهُ ، كما يشمئز منهُ طالب الزواج فيمضي الى غير عودة ، وبهذا الوصف يعطيك المؤلف صورة عن « زنوبة » لست ادري ان كان قد ظلمها فيها ولكن انصراف الخاطبين الذين رأوها يؤيد هذا الوصف ويؤكده

وفي شخصية « زنوبة » تجد هذه الصورة الدقيقة للنسوة الجاهلات اللواتي يلجأن الى السحر والسحرة لتحقيق اطماعهنَّ تارة ، وللكيد لاعدائهنَّ تارة اخرى ، كما تجد فيها هذه المرأة البلدي... التي لا تتورَّع عن ضروب كثيرة من الحيلة المكشوفة والوسيلة المستهجنة للفت نظر الرجل وما دام ان الزوج لم يأتِ اليها فلا بأس من ان تذهب هي اليهِ وتتصيده ولو من عرض الطريق . وما أشبهها « بسليم » من هذه الناحية !! فاذا افلت الرجل مع كل هذا من يديها وفازت بهِ فتاة اخرى انقلبت لبؤة مفترسة وقد وقع الصيد في شراك الغير بعد ان ظنت انهُ من نصيبها وحدها ، ولا تجد هنا ايضاً غير السحر والسحرة تستعين بهم في الكيد لمنافستها بل وللرجل الذي لم يتنازل ويرضى بها حتى لتسحر له ليموت ، ثم تدس للاثنين معاً عند افراد « الشعب » وتتحدث عن « سنية » كما يتحدثون عن بغيٍّ تعرض نفسها عرض السلع على الرجال وتنسى انها لم تتورَّع عن هذا ، ويبلغ بها الحقد ان ترسل خطاباً غفلاً الى والد « سنية » تتهم فيهِ فتاته بما تتهمها بهِ من سوء السلوك وفساد الخلق . فلما لم تغنِ كل هذه الوسائل والحيل عمدت الى معاكسة العاشقين تلك المعاكسات الصبيانية التي لا تزيد عن قذفهما ، وهما في شرفتها تحت نافذتها يتناجيان ساعات من الليل ، ببقايا الخضر والفاكهة وقد تسهر الليل طوله مكبة على عملها بنشاط تحسد عليهِ !

على ان « زنوبة » في كل هذا لا تخرج عن طبيعتها الساذجة ولا عن نداء الغريزة التي تضج بين جوانبها ، فالخيبة المرة اشعلت ثورتها وصهرت في قلبها عواطف الرحمة والحنان وعادت الفتاة اشد ما تكون المًا مضنيًا ويأساً قاتلاً ولم تجد عزاء الا في السحر فهو معينها على تصيد « مصطفى » فلما أخفق افلا يكون عند حسن ظنها بهِ ويعينها على قتله ؟ ! ولكن خاب أثر السحر في الاولى والثانية ولم ينفعها « الهدهد اليتيم » ولا « تراب المقبرة » فلم تجد غير « صفيحة الزبالة » تستعين بها وتبروك وأمرها لله !!

والمرأة في مثل حال « زنوبة » لا يؤلمها أكثر من ان تواجَه بمسألة السن ، وان كان النساء جميعاً في هذا سواسية ، فما كادت « سنية » تذكرها لها حتى شبت الحرب واعلنت «زنوبة» النفير العام ، واتخذت من « مبروك » اركان حرب ينفذ لها الخطط ويرسم معها طرق الدفاع والهجوم

على ان للمؤلف يسخر من هذه المسكينة ، واني لأحس بكثير من الشفقة والعطف عليها ، سخرية مرّة ولكأنها سخرية القدر الشامت الماني اذ يقول « ولولا زنوبة لما اتجه التفات سنية الى قهوة الحاج شحاته .... ولما رأت مصطفى ... » ويعني ان حركات زنوبة في ادمان النظر الى القهوة وفي التطلع الى مصطفى كانت السبب في لفت نظر سنية . فهو يسخر من المسكينة ومن حركاتها التي كانت من الوضوح بحيث تنبهت لها غريمتها ، ثم يطعنها طعنة قاتلة اذ يضع يدها على سر هائل لعلها لم تدركه ، وأنّى لها ان تعلم ان بسببها هي نظرت سنية الى القهوة ورأت مصطفى ثم كانت هذه العلاقة التي هدمت آمال «زنوبة» وذرتها مع الرياح ! !

لو طالعت بطلتنا هذه الفقرة لكان للمؤلف الكريم نصيب وافر من كيدها وسحرها . . . . . ولأبقت له من صفيحتها المباركة نصيباً طيباً . . . .

«حنفي» هذه هي الشخصية التي لا شخصية لها ، واعني ان «حنفي» ليست له هذه «الذاتية» التي نحسها لباقي افراد الرواية ولو انه مات في مستهل القصة لمضت الحوادث في سيرها كما مضت ، غير اننا كنا نفقد بذلك هذه الروح الفكهة الطيبة التي نستروحها في «حنفي» وكنا بهذا نخسر خسارة جسيمة لا تعوّض و « حنفي » هو الابتسامة التي تشع في ثنايا القصة كلها وتملأها حياة ومرحاً وتفيء الى ظلها من حين لحين ، نضحك من سذاجتها ونستريح لدعاباتها الحلوة ، ونقف عندها هنيهة للسخر منها مع الساخرين ثم نمضي

«حنفي» هو رب البيت واكبر الجميع سناً ولكن ليس له بينهم جميعاً سلطان ولا نفوذ ولا له أمر ولا نهي فهو رئيس ولكن رئيس شرف ! ! ولعلّ هذه التسمية من أبدع ماوفق اليه الاستاذ توفيق الحكيم في روايته وفي تحليله ووصفه لابطاله ، وقد اختصر لك فيها كل ما يمكن ان يقال عن هذه الشخصية وعن مكانها بين افراد القصة . و «حنفي» في المنزل لقبه « أبو لحاف » وكنيته في المدرسة وبين الطلبة « أبو زعيزع . . . » همه من الحياة ان ينام ، فما يكاد يدخل المنزل حتى يهرع الى السرير ، ولا يترك السرير — مكرهاً اخاك لابطل — الا ليأكل ، وما ينتهي من الاكل ، وقد يختزله اختزالاً ، حتى يسرع الى السرير مرة أخرى ، وعلى هذا النمط يعيش ، ويخيّل اليّ انه لو استطاع ان يتخذ له سريراً في المدرسة يلقي منه دروسه على الطلبة وهو تحت اللحاف ... لعاد أهنأ الناس بالاً وأسعدهم حالاً

ذهب مع «محسن» ليودعه عند سفره الى اهله وتطوّع لاحضار تذكرة السفر ، وعلى مقربة من شباك التذاكر وجد مقعداً جلس عليه ليستريح قليلاً فنام ... وفوّت على محسن القطار ! !

وهذا المشهد على قصره يعطيك فيه المؤلف ، كما ترى ، صورة بارزة واضحة لناحية الغالبة على هذه الشخصية ويتخير لذلك انسب الفرص التي تؤدي الى الغاية التي يرمي اليها من تصوير ابطاله تصويراً دقيقاً حتى في مثل هذه اللمحة الخاطفة . وتلك بعض نواحي الاعجاز والقدرة في هذا المؤلف

واذا اردت ان تجد مصداقاً لما قلته لك من ان «حنفي» ليست له «ذاتية» تحسها ولها شيء من الخطر او الشأن فاليك المشهد الذي يقف فيه بطلنا حكماً فصلاً بين « سليم » و « عبده » اذ يتخاصمان فلا يجد غير هذه الجملة

— معاك حق

ينقل بها القول تارة الى «سليم» وتارة الى «عبده» حتى يقلب الموقف كله هزلاً وعبثاً «ويعلم الجميع ان حنفي هازل لا يرجى منه» ويغضب سليم قائلاً

— بيت هلس ! بيت مالوش كبير ! لكن الحق عليَّ اعتمد على مين « ابو زعيزع»

ويضحك الجميع حتى « محسن » من عمه ، وحتى مبروك من سيده . واحب لك ان تقرأ هذا المشهد الطريف في موضعه من القصة في الجزء الثاني ، فهو من أبدع مشاهد القصة كلها ومن أدقها تصويراً لا لشخصية «حنفي» وحده ، بل لناحية من حياة « الشعب » جميعاً

﴿ مصطفى ﴾ تقف شخصية « مصطفى » وسطاً بين شخصيتي « محسن » و « سليم » وتحفظ التوازن بينهما ، فليس هو بالطفل الساذج الغر ، ولا بالرجل الجريء القوي . طلب العلم حيناً في القاهرة كغيره من ابناء الريف وعاش هذه الحياة التي ليست جداً خالصاً ولا فراغاً ولا لهواً خالصاً ، حياة ممتزجة هادئة فيها هذا الانكباب على الدرس والتحصيل ، وهذا العبث الذي يتورَّط فيه الشباب من حين لحين ولا يجدون منه مفرّاً ارضاء لغريزة الجنس فيهم ، وهو عبث متكلف متصنع لا شيء فيه ولكنه اضطرار وحاجة

مات والد «مصطفى» وخلف له ثروة لا بأس بها ، فعاد الى القاهرة يستعيد فيها ذكرياته الحلوة اللي ومن أتعبه ، ولعله لهذا لم يجد غير القهوة المواجهة لمنزله يقضي فيها اغلب ساعات النهار يتتبع ما يعرض امامه من المشاهد المتتالية في اهتمام قليل ويضحك من « سليم » ومن حركاته ، ولست أدري لم اغفل المؤلف ان يقول « ولولا سليم لما تنبه مصطفى الى الشرفة والى سنية ... »

نظر « مصطفى » فتاتنا « سنية » فعلق بها من النظرة الاولى وأدرك بفطرته الصادقة ان « سليم » انما كان يجلس في القهوة من اجلها وأحسَّ ان انصرافه انما يرجع الى صدوف الفتاة عنه ، وخشي ان يكون له مثل هذا الحظ السيء لولا ان « سليم » ليس بالرجل الذي يعجب المرأة » وأخذ يستعرض صور سليم المضحكة ... ثم اخذ يقيس نفسه به الى ان خرج بنتيجة في صالحه ... انه ليس مثله ولا نظيره ، ولو كان كذلك لألقى بنفسه في النيل من زمان ... »

« البقية في باب الاخبار العلمية »